الاستعمار الإنجليزي وتدمير مكونات الهويّة المصريّة

(اللغة - الدين - الثقافة)

علا عبد الله خطيب محمد[1]

الملخّص

كانت الهويّة العربيّة الإسلاميّة هي الهويّة التي تشكّلت منها الذاكرة المصريّة، ومثّلت شخصيّتها الحضاريّة. وقد فطن المستعمر الإنجليزي إلى هذا الأمر؛ فعمل على إخراج المصريين من هويّتهم الإسلاميّة عن طريق إدخال عناصر غريبة على تلك الهويّة؛ لتحويلها عن طبيعتها ووجهتها على نحو يقضي على تميّزها الخاصّ، فعمدً إلى استهداف المكوّنات الأساسيّة للهويّة المصريّة، التي تمثّلت في مكوّنات أساسيّة ثلاثة، هي: اللغة العربيّة، والدين الإسلامي، والثقافة الإسلاميّة؛ حتى يتسنّى لهذا المستعمر إخضاعها وتحويلها إلى مستعمرةٍ إنجليزيّةٍ أبديّةٍ تظلّ ما بقيت الدنيا تابعةً له.

يطرح البحث مجموعةً من الأسئلة هي التالية: ما الهويّة؟ وما مكوّناتها؟ وكيف عمل الاستعمار على تدمير هذه المكوّنات؟ وكيف عمل على النيل من اللغة العربيّة بمخططاتٍ شتّى؟ وبمن استعان من أبناء مصر؟ وكيف حاول الاستعمار النيل من القيم الدينيّة الأصيلة التي ارتبطت بها شخصيّة الشعب المصري في وجودها واستمرارها؟

جرى تقسيم هذا البحث إلى مقدّمةٍ وأربعة مباحث وخاتمة، تناولت المقدّمة أهميّة البحث، وتساؤلاته، ومبرراته، ومباحثه. في حينٍ جاء المبحث الأول تحت عنوان: مفهوم الهويّة بوصفه هدفًا استعماريًّا. أمَّا المحور الثاني فقد جاء تحت عنوان: الاستعمار واللغة، وأمّا المحور الثالث فتناول موضوع: الاستعمار والدين. وجاء المحور الرابع بعنوان: الاستعمار والثقافة. لترصد الخاتمة أهم نتائج البحث.

الكلمات المفتاحيّة: الاستعمار الإنجليزي- الهويّة الحضاريّة – اللغة – الدين – الثقافة الوطنيّة.

---

١. كاتبة متخصصة في التاريخ السياسي- مصر

أولًا. مفهوم الهويّة بوصفه هدفًا استعماريًّا

حاول المُسْتَعْمِر الإنجليزي في كافة البلدان التي استعمرها[١] أنْ يجمّل من صورته القميئة من خلال إشاراته إلى تركه أصداء تطوّر أو لمحات ازدهار هنا أو هناك. والتي لم تكن - في الحقيقة- إلّا لرفاهيّة أفراده ودعم مواطنيه الأصليين الذين يقومون على رعاية شؤون الاحتلال. وقد عبّر الزعيم المصري مصطفى كامل عن ذلك خير تعبير حين قال في حق الاحتلال الإنجليزي: «لا يغرّنكم من المحتلّين نعومة الملمس فقد يغلب عليهم زبانية الجحيم»[٢].

وبالرغم من مخادعة مفهوم (الاستعمار) الذي أُشتّق في معناه اللغوي من الإعمار والعمران، أي ما يعمر به البلد، ويصلح به حاله عبر الاهتمام والارتقاء بالزراعة والصناعة والتجارة، وأعمال التمدّن والتحضّر كافة. يبقى الاستعمار – مهما تغيّرت أشكاله وألوانه وادّعاءاته المظهريّة - هو الاحتلال والاستيلاء القهري للبلاد المُسْتَعْمَرَة، وتبقى المُسْتَعْمَرَة إقليمًا يحكمه أجنبيٌّ محتلٌّ يقوم باستغلاله اقتصاديًّا وعسكريًّا، ويسلك في سبيل ذلك السبل كافة، من إذلال وإفقار وتجهيل وتعتيم وتغريب، وما إلى ذلك من الوسائل والآليات التي تجعله خاضعًا مطيعًا، وتابعًا سهل الانقياد. ومن ثم تبقى كلمة استعمار، كما يقول مالك بن نبي: «هي أخطر سلاحٍ يستخدمه الاستعمار، وأحكم فخٍ ينصبه للجماهير، وما من خائنٍ يدسّه الاستعمار في الجبهة التي تكافح فيها الشعوب المستعمرة، إلّا وكلمة استعمار تفتح له أبوابًا مغلقةً في عواطف الجماهير»[٣].

وقد كان طمس هويّات تلك الشعوب المُسْتَعْمَرَة أحد أهمّ هذه الوسائل وتلك الآليات التي حرص عليها المُسْتَعْمِر بصفةٍ عامّة، والمستعمر الإنجليزي بصفةٍ خاصّة؛ لإحكام سيطرته وبسط سلطانه على مستعمراته؛ لأنَّ تغييب هويّة هذه الشعوب المحتلة يمسخ ملامحها لتغدو ظلًّا باهتًا للمحتل، وتابعًا له؛ ممّا يسهّل له عمليّات سلب الأوطان، ونهب ثرواتها من دون أدنى مقاومة تنتج عن الغيرة على الذات التي ضاعت، أو الهويّة التي مُسخت أو أُتلفت مكوّناتها جزئيًّا أو كليًّا. وقد كان طمس الهويّة المصريّة أهم أهداف الاستعمار الإنجليزي، وعلى رأس الأولويات منذ البداية؛ إذ إنّهم كانوا ينوون نيةً لا شكّ فيها أنْ يكون احتلالهم لمصر أبديًّا، بالرغم ممّا أذاعوه في أوّل

١. احتلت انجلترا بلاد البنغال عام ١٧٥٧م، واحتلت البنجاب عام ١٨٤٩م، ثم احتلت نيجريا عام ١٨٥١م، وزنجبار عام ١٨٧٠م، ثم جزيرة قبرص عام ١٨٧٨م، وفي عام ١٨٩٨م، احتلت السودان، ثم العراق عام ١٩١٩م، ثم الأردن في عام ١٩٢٠م.

٢. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩)، ص٤٣٨.

٣. مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص٢٨.

الأمر من أنّ هذا الاحتلال مؤقّت، وليس لهم مأرب سوى استتباب الأمن في مصر، وتثبيت عرش الخديو[١].

. ولم يكن هذا خاصًّا بالاستعمار الإنجليزي دون غيره - كما سبقت الإشارة - إنّما كان دأب المستعمِر الأوروبي بصفةٍ عامة مع كلّ الأمم التي استعمرها؛ فما من مُسْتَعْمِرٍ إلاّ وقصد جاهدًا إلى محو هويّة القطر المُسْتَعْمَر وتشويه رموزه ومعالمه. وهذا ما يفسّر حرص المُسْتَعْمِر من أوّل يومٍ تطأ قدمه الأرض المُسْتَعْمَرَة على أنْ تسود هويّته في البلاد التي يستعمرها. وقد يساعده في ذلك ظروف وعوامل شتّى، لعلّ أهمّها على الإطلاق زهوة المنتصر الذي يبدو صاحب الحضارة الأقوى والأجدى والأنفع. فأمام مرارة الهزيمة يتم فقدان الثقة في كلّ ما هو ذاتي، وتفقد الذات تحت قهر المنتصر كلّ ثقةٍ في موروثاتها، وتقع في دوامة التلذذ بجلد الذات والتشكيك في كلّ ما بقى لديها من موروثات، وتتطلّع نحو المنتصر لتسلك مسلكه؛ لعلّها تحوز أسباب القوة كما حازها. ومن ثم يسهل طريق المُسْتَعْمِر إلى تحقيق هدفه، فيسلّط سهامه المسمومة إلى الهويّة الوطنيّة بغية طمسها والقضاء عليها. لكنَّ السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: ما الهويّة؟ وما مكوّناتها؟

يجب أنْ نأخذ في الاعتبار أنَّ مفهوم الهويّة خلافًا لما قد يبدو عليه من بساطةٍ ووضوحٍ للوهلة الأولى؛ هو في الحقيقة ــ مع البحث الدقيق ــ أكثر تعقيدًا وتشعبًا، وذلك لانتمائه لعدّة علومٍ إنسانيّةٍ واجتماعيّةٍ مختلفة المنهج والمعالجة؛ الأمر الذي يبدو معه مفهوم الهويّة مفهومًا متنوّع الدلالات والاصطلاحات، إذ يتناوله كلّ علمٍ من منظوره الخاصّ. وهو ما يقرره أليكس ميكشيللي Alex Mucchielli، في مقدمة كتابة عن (الهويّة) حيث يقرر: أنّ»مفهوم الهويّة يوظّف في مجال العلوم الإنسانيّة كمفهومٍ شمولي، على نحوٍ متزايدٍ وفقًا لدلالاتٍ مجازيّةٍ بالغة التنوع»[٢]. ويفرّق حسن حنفي بين مفهوم (الهويّة)، ومفاهيم أخرى تتداخل معه، مثل (الماهيّة)، و(الجوهر)؛ ويرى أنّ الهويّة تتميز عنهما - رغم انتمائهم جميعًا إلى جذرٍ معنويّ واحد وهو الأصل - بأنّها خاصّة بالإنسان والمجتمع، فهي موضوعٌ إنسانيّ خالص، فالإنسان هو الذي ينقسم على نفسه، وهو الذي يشعر بالمفارقة أو التعالي أو القسمة بين ما هو كائن وما ينبغي أنْ يكون، بين الواقع والمثال، بين الحاضر والماضي، بين الحاضر والمستقبل. وهو الذي يشعر بالفصام، وهو الذي تنقلب فيه الهويّة إلى اغتراب. الإنسان وحده هو الذي يمكن أنْ يكون على غير ما هو عليه. فالهويّة تعبّر عن الحُريَّة،

١. شحاتة عيسى إبراهيم، الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، ص٥٤.

٢. أليكس ميكشيللي، الهويّة، ص١١.

الحريّة الذاتيّة إنْ وُجدت فالوجود الذاتي، وإنْ غابت فالاغتراب[١].

وبالرغم من ذلك يمكننا القول إنَّ الهويّة هي ما يحقّق الأنا ذاتيًّا ويميّزها عن غيرها، وهي شيءٌ أصيلٌ في الوجود الإنساني، فمن يفقد هويّته يفقد الوجود الذاتي الأصيل، ويشعر بالعدم والخواء والفراغ، ويسهل تشكيله كي يكون أداةً طيعةً لخدمة من يملك زمام قيادته، فيصير تابعًا مُنقادًا، وينتهي الأمر بهلاكه واندثاره.

أمَّا مكونات الهويّة فهي تتكون حسب الرؤية الكلاسيكيّة من دعائم أو مكوّنات ثلاثة كبرى هي: اللغة، والدين، والثقافة. وإنْ كانت الباحثة لا تنكر وجود دعائم أخرى تقوم عليها هويّة أيّ أمةٍ من الأمم كالتاريخ المشترك، ووحدة العادات والتقاليد وغيرهما. إلا أنَّ الباحثة ترى أنَّ هذه الدعائم الثلاث هي الأكثر أهميّة ومحوريّة، التي يكون عليها إجماع المتناولين لمفهوم الهويّة بمعناه العام، وفي فلكها - أيضًا - تدور الدعائم الأخرى التي يمكن من خلالها تحديد هويّة أيّ أمة. كما أنّها الأكثر تعرّضًا لهجمات المُستعمِر في حربه لطمس الهويّات الوطنيّة. وهو الأمر الذي يفسّر لنا ما قامت به إنجلترا عقب احتلالها لمصر، إذ أرسلت ثلاثة أرباع المبعوثين إلى إنجلترا انصرف ٦٥٪ منهم إلى دراسة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة[٢]. وهي العلوم الذي تتناول اللغة، والدين، والثقافة؛ حيث يكون هؤلاء المبعوثون عونًا لها في نشر ثقافتها ولغتها وفرض هويّتها.

وقد بدأ صراع الهويّات في مصر عام ١٩٠٦م، حيث عمل السير إفلن بارنج (اللورد كرومر) المندوب السامي البريطاني والحاكم الفعلي لمصرعلى تشجيع مجموعةٍ من المصريين على الترويج للقُطْريّة المصريّة، وتمجيد الرموز الفرعونيّة، وإثارة اعتزاز المصريين بأصلهم الفرعوني، وذلك في مواجهة الهويّة الإسلاميّة التي تبنّاها الحزب الوطني (بقيادة مصطفى كامل)، والهويّة القوميّة العربيّة التي تبنّاها حزب الإصلاح على المبادئ الدستوريّة. وقد شجّع المندوب السامي البريطاني ما كان يطلق عليهم أصحاب المصالح على إنشاء حزب الأمّة، وإصدار جريدة (الجريدة) التي رأس تحريرها أحمد لطفي السيّد. وهذه الجريدة كانت تبالغ في تمجيد الفرعونيّة، كأساسٍ لهويّة المصريين، وتربط ذلك بالتحالف مع الإنجليز، بحجة أنّه ليس هناك مشكلة في تبعيّة مصر

١. حسن حنفي، الهويّة، ص١١.

٢. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩)، ص٤١٧.

الفرعونيّة لبريطانيا، وقطع علاقتها بالدولة العثمانيّة وبالإسلام[١]. وسوف نتناول جهود الاستعمار لتدمير مكوّنات الهويّة المصريّة أو النيل منها على المستويات كافة.

ثانيًا. الاستعمار واللغة

تُعدّ اللغة عند الكثيرين بمنزلة الدعامة الأم التي تقوم عليها الهويّة، حيث يُنسب الإنسان للوهلة الأولى - في غالب الأمر - إلى لغته، فيقال: عربي، أو إنكليزي، أو فرنسي، أو صيني، أو ياباني حسب اللغة التي يتكلّمها؛ ولذلك كان الشغل الشاغل للاحتلال الإنجليزي - بعد أنْ اطمأنّ لمركزه الدولي بعد توقيع اتفاقية (الاتفاق الودي) في ٨ أبريل عام ١٩٠٤ الذي يضمن ألّا تعارض إنجلترا مدّ نفوذ فرنسا إلى مراكش مقابل ألّا تعارض فرنسا بقاء إنجلترا في مصر- أنْ تُمحى لغة هذه البلاد الأصلية، وتحلّ محلّها الإنجليزيّة، وهو الأمر الذي حاولته أيضًا إيطاليا في ليبيا، وفرنسا في تونس والجزائر، وإسبانيا في بعض أجزاء من المغرب. ولولا جهود التعريب التي قام بها المخلصون من أبناء الأمّة العربيّة لمواجهة (الفرنسة) و(النجلزة) لضاعت الدعامة الأم التي تقوم عليها الهويّة. وإنْ كان هذا لا يمنع نجاح تجارب المستعمِر في تغييب الهويّة لكثيرٍ من البلدان، كما فعلت بريطانيا في جنوب إفريقيا وغينيا الاستوائية ونيجيريا والهند، أو فرنسا فِي دول الغرب الأفريقي (الدول الفرانكفونية)، وإسبانيا في الفلبين، وهولندا في أندونيسيا..الخ.

فما كاد الأمر يستتب للإنجليز في مصر حتى أسند اللورد كرومر (الحاكم الفعلي لمصر) وظائف التدريس في المدارس إلى الإنجليز دون المصريين، وشرع (دجلاس دنلوب Douglas Dunlop» - الذي عيّنه كرومر مستشارًا للتعليم – في تطبيق سياسة (النجلزة)، فقصر التعليم في مصر على الأهداف التي ترمي إليها إنجلترا، وعمل على زيادة عدد المدرّسين الإنجليز في المدارس الابتدائيّة وما فوقها، وجعل اللغة الإنجليزيّة هي اللغة الأولى في المدارس، وهكذا ضمنت إنجلترا تفوّق اللغة الإنجليزيّة في دوائر الحكومة على اللغة العربيّة[٢].

وما زال الأوربيّون (المستعمِر القديم) يحرصون اليوم على إنشاء جامعاتٍ أوروبيّةٍ في البلاد (المستعمَرات القديمة)؛ لينشروا لغاتهم وثقافاتهم. بل فتحوا جامعاتهم أمام الدارسين القادرين ماديًّا

١. سليمان صالح، قصة الهويّة التي حاول الإنجليز فرضها على مصر..!، مقال إلكتروني منشور بتاريخ ٢٠٢٤/٣/٢٦ ، وتم الدخول عليه في ٢٠٢٤/٩/١٢، على الرابط التالي:

https://www.ajnet.me/blogs/202426/3//%D982%%D8%B5%D8%A9-

٢. عمر عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، ص٤١٨.

والمتميزين علميًّا، لخلق جيلٍ جديدٍ يمثّل لغاتهم وثقافاتهم في تلك الأقطار، حتى صار الحديث باللغات الأوروبيّة مدعاةً للفخر في سائر هذه البلاد. وهو الأمر نفسه الذي قام به الاحتلال الإنجليزي عندما فرض حمايته على مصر؛ إذ أهمل التعليم وضنّ عليه بالأموال وجعله بمصروفات عالية بعد أنْ كان بالمجان، وحصره في فئةٍ قليلة، وقصر أهدافه على تخريج موظّفين للدولة فقط، وأخضعه لمجموعةٍ من النظم والقواعد الصارمة التي ابتدعها (دنلوب)، والتي أماتت روح الابتكار، ونشَّأت الأفراد على الخضوع والاستسلام. وليس أدلّ على إهمال الإنجليز لشؤون التعليم من أنّه بعد مضي أربعين عامًا على الاحتلال كانت نسبة الأُمّيّة في مصر لا تقلّ عن ٩٢٪ من البنين، و٩٧٪ من البنات[١].

ولذلك كانت اللغة - من وجهة نظرنا - من أهمّ مكونات الهويّة الوطنية للشعوب؛ لذا كان تدميرها أهمّ أهداف الاستعمار وسُبُلَه لطمس الهويّة الوطنيّة للشعب المحتَل، فالمستعمِر الإنجليزي وهو في طور إحكام سيطرته على مصر حاول بكلّ السبل التقليل من شأن اللغة الوطنيّة، وإظهارها بأنّها لغةٌ رجعيّةٌ متخلّفةٌ غير ملائمةٍ للتطوّر والتحديث والمعاصرة. في مقابل إضفاء الحداثة والمعاصرة والعظمة والقوة على لغته بوصفها السبيل الوحيد للتقدّم والتطوّر كي يغري الشعب المصري بالانصياع لمخططاته. ويسعى لتحقيق ذلك من خلال صنائعه وعملائه المخلصين من أبناء هذه الأوطان، ومن خلال المؤسّسات التي أنشأها، والمناهج التي وضعها، فارضًا إيّاها بكلّ قوته الممكنة. وقد قام بعض صنائع الاستعمار وعملائه بدورهم على أكمل وجه؛ فقدّموا لغة المستعمِر على أنَّها اللغة الأفضل، ورمز التحضّر ومفتاح التطوّر، ولا سبيل إلى الولوج إلى حياة التحضّر والرقي والمدنيّة إلّا بها.

وقد لعب الإنجليز في مصر دورًا كبيرًا في نشر اللغة العاميّة؛ وذلك عن طريق العديد من الصحف ونشر عشرات الكتب التي تروّج للهجة العاميّة المصريّة، لطمس الهويّة العربيّة وتمزيق وحدتها الفكرية عن طريق محاربة اللغة الفصحى التي تجمع بين الأقطار العربيّة[٢].

وهنا يجدر بنا أنْ نذكر ذلك الدور الذي لعبه عملاء الاستعمار الإنجليزي لأداء الدور المطلوب في هدم اللغة العربيّة، وما أكثرهم عددًا في مصر، فبسط الهيمنة الاستعماريّة لا يتّجه أولاً إلى عامّة الناس؛ وإنّما إلى نخبهم المثقّفة، فهم الذين يتحولون إلى أدواتٍ تخدم المستعمِر، فالنخب وحدها هي القادرة على التعبير والكتابة، ومن ثَمّ الذيوع والانتشار.

١. عطية القوصي وآخرون، الحضارة الإسلاميّة وتاريخ العرب الحديث، ص١٤٤.

٢. عصمت نصار، فكرة التنوير بين لطفي السيّد وسلامة موسى، ص ١٣٨.

ويكفي هنا أنْ نذكر ذلك الدور الذي لعبه سلامة موسى في مصر كأنموذجٍ لمحاولات نسف اللغة العربيّة. وإنْ لم يكن سلامة موسى هو الوحيد المناهج التي وضعها بل شاركه الكثيرون من أمثال قاسم أمين، وأنيس فريحة، وحسني العرابي، وعبدالله جول، وإسماعيل أدهم، وإبراهيم مصطفى، وحسن رفقي، وغيرهم ممّن تطول بهم القائمة، من الذين ساروا على الطريق الذي رسمه المستشرقون بصفةٍ عامّةٍ من أمثال المستشرق الألماني (ولهلم سبيتا) الذي شغل منصب أمين دار الكتب المصريّة في كتابه (قواعد العربيّة العامية في مصر)، والذي نشره باللغة الألمانية عام ١٨٨٠م، وفيه ذهب إلى أنّ علة ركود الثقافة في مصر وابتعاد أهلها عن العلم ترجع في المقام الأول إلى لغتهم الفصحى الموروثة، التي تقف حائلاً بينهم وبين التطوّر؛ لذا اقترح أنْ تحلّ العاميّة محلّ الفصحى، وأنْ تستبدل حروفها بالحروف اللاتينيّة [١].

وقد سار الإنجليز على الطريق الذي رسما (سبيتا) بدقة، وتحمّس له كثيرٌ منهم من أمثال اللورد (دوفرين) السياسي الإنجليزي، ومهندس الري الإنجليزي (ويلكوكس)، والقاضي الإنجليزي (ولمور)، وغيرهم. فقد عمل هؤلاء جميعًا على إيصال رسالة محدّدةٍ فحواها: أنَّ علة ركود الثقافة في مصر وابتعاد أهلها عن العلم ترجع في المقام الأول إلى أنّ لغتهم الفصحى الموروثة لغةٌ جامدةٌ تعجز عن مواكبة التطوّر والتعبير عمّا استجد من أمورٍ علميّةٍ ما أكثرها، ولابد من تدارك هذا الأمر إذا أراد المصريون أنْ يلحقوا بركب التطوّر والحضارة.

وتابعهم في ذلك كثيرٌ من العملاء أو من المخدوعين بالدعوة من أمثال: قاسم أمين، وأحمد أمين، وغيرهم. لتصبح محاولات سلامة موسى هي الأبرز، التي تستوفي كلّ شروط المستعمِر الإنجليزي لنسف أهمّ دعامات الهويّة العربيّة ألا وهي اللغة. وتكمن هذه الدعوة في ثلاثة محاور، هي:

أ. إلغاء النحو وهجر القواعد اللغويّة

رأى سلامة موسى وقاسم أمين وأنيس فريحة وغيرهم أنَّ مأزق اللغة العربيّة يكمن في النحو وقواعده الكثيرة المعقدة، والذي يمثّل عقبةً كبرى أمام المتعلّمين لها؛ ولذلك فلا مانع من إلغائه. ومن ثم يقول سلامة موسى:» ولهذا السبب يجب أنْ نقتصر من تعليم اللغة العربيّة في مدارسنا الابتدائية على تمكين الطالب من المطالعة والفهم، بلا حاجة إلى أيّ قواعد نحويّة، وليس عليه حرج أنْ يقرأ فيرفع المفعول، وينصب الفاعل، مادام يفهم ما يقرأ. حسبه أنْ يسكّن آخر الكلمات

١. الجميعي، عبد المنعم، مجمع اللغة العربيّة، ص١٨.

كما نفعل نحن حين نقرأ، وبدلاً من هذه القواعد النحويّة يجب أنْ يتعلّم الصبي أكبر مقدار مستطاع من الكلمات...أمّا في المدارس الثانويّة فنشرع في تعليم أقل ما يستطاع من قواعد النحو، ولا نُبَالِيَ الإعراب الذي أثبت الاختبار أنّه لا فائدة منه بتاتًا»[١]؛ ولذلك لم يكن غريبًا أنْ يُثني موسى على محاولة كلٍّ من قاسم أمين وأحمد أمين من خلال دعوتهما إلى إلغاء الإعراب.

واقترح سلامة موسى وحسن الشريف عدّة مقترحاتٍ لإصلاح اللغة الفصحى، وهي اقتراحات تهدف في الحقيقة إلى نسفها لا إلى إصلاحها؛ إذ تتمثّل هذه المقترحات في: إلغاء الألف والنون من المثنى، والواو والنون من جمع المذكر السالم، وإلغاء التصغير، وإلغاء جمع التكسير كله، والاكتفاء بالألف والتاء لغير المذكر السالم، إلغاء الإعراب - كما سبق أنْ بيّنا - والاكتفاء بتسكين آخر الكلمات، ورسم حرفٍ كبيرٍ عند ابتداء الجمل تأسّيًا بما يحدث في اللغات الأوربيّة، وعدم ترجمة الألفاظ الأوربيّة، والاكتفاء بتعريبها كأنْ نقول (بسكيلت)، ولا نقول درّاجة[٢].

ب. إحلال الحروف اللاتينيّة محلّ الحروف العربيّة

رأى أنصار هذا الفريق، ومن أبرزهم عبد العزيز فهمي وسلامة موسى أنّ الخطوة الثانية التي يجب اتّخاذها لإصلاح اللغة الفصحى هي: إحلال الحروف اللاتينيّة محلّ العربيّة، ورأى أنَّ من أهمّ مظاهر تخلّف مجمع اللغة العربيّة تبدو في تمسّكه بالحروف العربيّة في الكتابة ذات الرسم المضلل، تلك الحروف التي تعدّ في رأيه عاجزةً عن توصيل النطق السليم للمصطلحات العلميّة الأوروبيّة الحديثة إلى من يقرأها. ورأوا أنَّ في اتخاذ الحروف اللاتينية مظهرًا من مظاهر الرقي والتمدّن، وخطوةً إيجابيّةً نحو اللحاق بركب الحضارة العلميّة الحديثة، بل ونقلة من طور البداوة إلى طور العمران، الأمر الذي من شأنه فضّ النزاع بين الشرق والغرب، والانفتاح على الثقافة العالميّة والانخراط فيها[٣].

كما قرروا أنّ هناك عدة ميزات أخرى في استخدام الخط اللاتيني، كالتوحيد البشري؛ إذ يصبح هو خطّ القراءة والكتابة الوحيد لدى جميع الأمم، التي تنتج العلم وتمتلكه، والتي تنتفع به وتتعلمه. ويزول الانفصال النفسي بين الشرقيين والغربيين. وتزيد القدرة على استحداث كلمات جديدة

١. سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربيّة، ص ١١٣-١١٤.

٢. عصمت نصار، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، ص ١٦٥.

٣. عبد العزيز فهمي، تيسير الكتابة العربيّة، ص ٥-٧. وانظر أيضًا: عصمت نصار، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، ص ١٦١.

بإلحاق بعض المقاطع إلى بعض الكلمات، ولا يكون ذلك في الخطّ العربي. بالإضافة إلى سهولة استعمال الكلمات العلميّة من دون حرج، وفتح آفاقٍ جديدةٍ أغلقها استخدام الحرف العربي، لكنها تنفتح باستخدام الخطّ اللاتيني، هذا فضلاً عن أنّ سرعة تعلّم الخطّ اللاتيني يُقدَّر بعشر الوقت الذي يستخدمه تعلّم الخطّ بالحرف العربي[١]. ومن ثم أخذ عبد العزيز فهمي في الإشادة بالتجربة التركيّة التي كان لها فضل السبق في استعمال الخطّ اللاتيني لكتابة اللغة التركيّة.

ج. الدعوة إلى استخدام اللغة العَاميّة

نجح الاحتلال البريطاني في أنْ يجعل أنصاره يواصلون دعواتهم على صفحات مجلتي (المقتطف)، و(الهلال) إلى مناصرة اللغة العَاميّة، وجعلها اللغة الرسميّة بدلاً من الفصحى؛ لكونها لغة الناس في المعاملات اليوميّة، وهي الأكثر فهمًا من الجميع، وأنّها أوفى تعبيرًا، وأدقّ معنًى، وأحلى ألفاظًا؛ الأمر الذي يجعلها أجدر من الفصحى في أنْ تكون هي اللغة الرسميّة، في حين أنَّ اللغة الفصحى تبدو كلغة الكهّان في المعابد القديمة، لا يستطيع فهمها عامّة الناس فضلاً عن بعض الخاصّة الذين لم يتلقّوا تعليمًا لغويًّا متخصّصًا. وأكّد كلٌّ من سلامة موسى ونصرة سعيد أنّ اللغة الفصحى لغةٌ جامدة، وأنَّ مصيرها إلى الموت، وأنّها تعمل على تفكيك وحدتنا القوميّة المصريّة، وتجعل منا أتباعًا لثقافةٍ مريضة، وهي الثقافة العربيّة الشرقية![٢].

ورأى سلامة موسى أنَّ اللغة الفصحى مثقلةٌ بقواعدها ومفرداتها التي تجعل من الصعوبة تعلّمها، فضلاً عن عجزها عن تأدية أغراضنا الأدبيّة، فتعليم الطبّ بالعربيّة كارثة! أمّا اللغة العاميّة فبها تقوم الدراما التي لا تقوم على الفصحى إلاّ في أضيق الأحيان، وبها تتحقّق هويّتنا المصريّة؛ إذ إنّ اللغة الفصحى تبعثر وطنيتنا المصريّة وتجعلها شائعةً في القومية العربيّة. فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب، ويعجب بأبطال بغداد القدماء، بدلاً من أنْ يشرب الروح المصريّة ويدرس الروح المصريّة![٣].

ثم أعلن سلامة موسى أنَّ اللغة العربيّة ليست اللغة المعبّرة عن مزاجنا العلمي، وأنّنا الآن (نرطن) اللغة الفصحى رطانة، ولم تشربها بعد نفوسنا، ولا أمل في أنْ تشربها؛ لأنّها غريبةٌ عن مزاجنا، ولا تتناسب قطّ مع لغة التقدّم والتحضّر والتمدين؛ وذلك لأنّها لغةٌ بدويّة، والثقافة هي

١. انظر: سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربيّة، ص ١١٧-١١٨

٢. عصمت نصار، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، ص ١٦٣.

٣. سلامة موسى، اليوم والغد، ص ٧٤.

بنت الحضارة، وليست بنت البداوة، فلهذا يشق علينا جدًا أنْ نضع معاني الثقافة في هذه اللغة سواء بالترجمة أم بالتأليف![١].

كما رفض سلامة موسى وأشياعه القول بأنّ اللغة دعامةٌ من دعائم الهويّة، وزعموا بأنّ القول بذلك وهمٌ كبير، فلم تخسر أوروبا بترك اللاتينيّة التي كانت لغة الكتابة عند جميع المثقّفين، عندما اعتمدت كلّ دولةٍ على لغتها المحلّيّة. فلم تكن أبدًا لا اللغة اللاتينيّة، ولا الدين المسيحي أهمّ الروابط التي كانت تربط الأمم الأوروبيّة؛ فإنّ الإنجليز قد حاربوا الأمريكيين، وهما ينتميان إلى لغةٍ واحدةٍ ودينٍ واحد. ولم تكن الحروب في القرون الوسطى حين كانت اللغة اللاتينيّة عامة أقلّ ممّا كانت عقب النهضة[٢]. فالشعور بالنهضة عندهم هو نفسه شعور بالاستقلال، والناهضون الذين دعوا إلى العلم والأدب والتجديد في الأخلاق والسياسة شعروا بكرامةٍ قوميّة، بعثتهم على الإكبار من شأن اللغة القوميّة، فاتّجه نظرهم إلى المستقبل دون المبالاة للروابط التاريخيّة في الماضي. لينتهي موسى إلى القول: «ولو أنّ الأوروبيين وضعوا الدين ولغة الدين فوق القوميّة لكانت أوروبا الآن دولةً واحدةً عاصمتها روما»[٣].

ولا شك عندي في أنّ الدعوة إلى هجر اللغة الفصحى هي دعوةٌ واهيةٌ، عمل كثيرٌ من الدارسين والباحثين على بيان تهافتها، وإثبات أنّها دعوةٌ ذات «أهداف مغرضة لا تمت للعلم بنسب»[٤]. تبناها المستعمر الإنجليزي في مصر الذي أراد أنْ يتّخذ من صعوبة قواعد اللغة العربيّة مبررًا للعدول عنها إلى العاميّة حتى يقضي بذلك على أهمّ مقوّمات الوحدة العربيّة والوحدة الإسلاميّة[٥]. ولذلك نشأت العديد من التيارات الوطنية والقومية التي أكّدت أنّ اللغة العربيّة الفصحى لغةٌ طيّعةٌ مرنةٌ تتناسب مع كلّ العلوم، وتلائم جميع الأغراض، وتناسب كلّ تطوّرٍ مأمول، ولا يضيرها أبدًا دخول بعض المصطلحات العلميّة إليها، وما أكثر المصطلحات التي أضيفت إليها، وذابت في مجالها العام من المجالات كافة.

وهكذا تمثّل كلّ دعوات هجر اللغة العربيّة الفصحى أو تغيير حروفها ورسمها أو إلغاء قواعدها هدفًا خبيثًا أراده الاستعمار[٦].

---

١. المصدر نفسه، ص ٧٨.
٢. سلامة موسى، ما النهضة، ص ٧٤.
٣. سلامة موسى، اليوم وغدا، ص ٧٥.
٤. نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص(د).
٥. سلامة موسى، اليوم والغد، ص ٢٠٥.
٦. محمد جلال كشك، قراءة في فكر التبعيّة، ص ٢١.

د. صمود اللغة في مواجهة الاستعمار

صمدت اللغة العربيّة في مصر صمودًا قويًّا أمام محاولات الاستعمار الإنجليزي محوها؛ فقد شنّ الإنجليزيان: القاضي (ولمور)، في كتابه (العربيّة المحكية في مصر) سنة ١٩٠١م، ومهندس الري (ويلكوكس) في محاضراته التي عنونها بـ(لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن)، هجومًا عنيفًا على اللغة العربيّة، ادّعى فيه كلٌّ منهما أنّ «من أخطر أسباب تأخّر المصريين في ميدان الحياة وتخلّفهم عن الأوروبيين في الابتكار الأدبي والعلمي هو تمسّكهم بلغة القرآن والأساليب العربيّة القديمة، ومن الأفضل لهم أنْ ينهضوا باللغة العاميّة حتى يسايروا ركب الحضارة، فهي لغةٌ حيةٌ دائمة التجدد يفهمها جمهور الشعب، ولا نهضة للأمة إلّا إذا نهض سواد الشعب، ليفهم ما يكتبه العلماء والأدباء، ولن يأتي هذا إلّا إذا كانت الكتابة باللغة العامية» [١]. وزعما بأنّ أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهّم يؤلّفون ويكتبون باللغة العربيّة الفصحى، ولو ألّفوا وكتبوا بالعامية لصاروا مخترعين! واستدلّ على ذلك بأنّ الإنجليز كانوا يؤلفّون باللاتينيّة فلم يكونوا مخترعين، فلّما اختاروا لغة الفلّاحين الإنجليز، وكتبوا بها صاروا مخترعين.

وهذا الأمر رفضه المصريون بكلّ قوة وإباء؛ إذ قام كلٌّ من محمد عبده، وحمزة فتح الله، وحسن الطويل، وحفني ناصف، ومحمد بيرون، ومحمد المويلحي، وتوفيق البكري وآخرين، بتكوين أوّل مجمعٍ لغويّ في مصر (مجمع البكري عام ١٨٩٢م) للدفاع عن أصالة اللغة العربيّة الفصحى ضد هذه الهجمة الشرسة، والعمل في الوقت نفسه على إصلاح أساليبها ومناهجها الدراسية، غير أنّ هذا المجمع لم يدم إلّا بضعة أشهر. إلا أنّ همم المصلحين لم تفتر، فاستطاع أحمد لطفي السيّد إقناع الحكومة بضرورة إنشاء مجمعٍ حكومي للغة العربيّة في ١٣ديسمبر ١٩٣٢م[٢].

وتوالت مقالات المصريين وندواتهم في الرد على حملات الاحتلال الإنجليزي ضد اللغة العربيّة الفصحى، وهتك أستار دعوة (ويلكوكس)، ولكنّهم لم يكتفوا بذلك، بل ذهبوا إلى تفنيد الدعوة بطريقةٍ عمليّة؛ إذ قام فريقٌ من المهندسين المصريين بإصدار مجلةٍ علميةٍ أطلقوا عليها اسم (المهندس) للأبحاث الرياضيّة والعلميّة، ليثبتوا عمليًّا إمكان معالجة هذه المسائل باللغة العربيّة

١. عصمت نصار، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، ص ١٣٩.

٢.المصدر نفسه، ص ١٤٠-١٤١.

الفصحى التي زعم (ولكوكس) أنّها لا تصلح لمعالجتها، فأضاعوا بذلك كلّ الجهود التي كان يبذلها في نشر دعوته[١].

ولم تفلح الاغراءات الماديّة والأدبيّة التي أعلن عنها الاحتلال الإنجليزي للمصريين إذا أقبلوا على الكتابة بالعاميّة وأعرضوا تمامًا عن الكتابة بالفصحى، فأعلن (ويلكوكس) في نهاية المحاضرة الأولى من محاضراته التي ضمنها كتابه (لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن) عن مسابقة يغري بها المصريين بالمكافآت المالية إذا تباروا في الكتابة بالعامية، فيقول: «من قدَّم لنا هذه الخطبة باللغة الدارجة المصريّة، وكانت موافقة جدًا يكافأ بإعطائه أربعة جنيهات إفرنكية، وإنْ كثر المتقدمون فيعطى هذا المبلغ لمن يحوز الأفضلية»[٢].

لكن تلك الإغراءات لم تزد المصريين إلّا تمسّكًا باللغة الفصحى حتى يئس صاحب الدعوة من صمودهم، وانتهى به اليأس إلى إغلاق مجلته (مجلة الأزهر)[٣] بعد صدور العدد العاشر منها. وقد صرَّح (ولكوكس) نفسه بالسبب الذي جعله يتوقّف عن إصدار مجلته، وهو عدم تلبية المصريين بصفةٍ عامةٍ دعوته[٤]. وهو الأمر نفسه الذي قوبلت بها دعوات (ولمور)؛ إذ ناقشت مجلة الهلال على صفحاتها جميع مزاعم (ولمور) التي برّر بها دعوته للكتابة بالعامّيّة، مناقشةً علميّةً منطقيّةً تاريخيةً، كانت كفيلةً بإزالة الشكوك التي أثارها (ولمور)، في نفوس أبناء العربيّة، ورغم ذلك بقيت مجموعةٌ من عملاء الاحتلال ودعاة التغريب متشبثةً بهذه الدعوة البالية حتى يومنا هذا.

ثالثًا. الاستعمار والدين

سعت إنجلترا منذ ولوجها أرض مصر إلى إبعاد المصريين عن الدين الإسلامي بشتّى الطرق

---

١. نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص١٠٦-١٠٧.

٢. محمد جلال كشك، قراءة في فكر التبعيّة، ص١٠٧.

٣. مجلة الأزهر ليست هي المجلة الموجودة حاليا التي يصدرها مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر الشريف، وإنّما هي مجلة علمية كان يصدرها عالمان كبيران من علماء الأزهر، وهما إبراهيم بك مصطفى والدكتور حسن بك رفقي، وبعد أنْ استمرا فيها خمس سنوات إلى نهاية سنة ١٨٩٢ م، أنيطت بهما أعمال أوسع من أعمالهما الأولى، ومنها إسناد نظارة مدرسة دار العلوم العليا إلى إبراهيم بك مصطفى بعد أنْ كان مدرسًا للكيمياء في إحدى المدارس العليا، فتخلّيا عن مجلة (الأزهر) من نهاية سنتها السادسة (يناير ١٨٩٣م) إلى المهندس الإنجليزي الشهير (وليم ويلكوكس)، وكانت فاتحة أعمال ويلكوكس عند انتقال مجلة (الأزهر) إليه أنْ ألقى محاضرةً في نادي الأزبكية (أنجلو إجبشيان كلوب) موضوعها (لِمَ لمْ تُوجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن؟).

٤. نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، ص١٠٧.

والوسائل، لدرجة أنّ اللورد كرومر صرّح قائلاً: «إنّ مصر بلدٌ غير محدّد، وإنّ وصفها بأنّها بلدٌ إسلاميٌّ شيءٌ بعيدٌ جدًا عن الصواب»[١]. ولذلك عمل الإنجليز على قطع الصلة بين الدين الإسلامي والمصريين، وعملوا على تحقيق ذلك عبر وسائل شتى، كان أهمها: التبشير، والاستشراق، والطائفيّة. فقد كانت إنجلترا بحقّ أشدّ قسوةً على الإسلام، وأشدّ خطرًا على العالم الإسلامي من كلّ الدول الاستعماريّة الأخرى؛ لأنّها كانت أقلّ حماقةٍ من فرنسا وإيطاليا، ولأنّها استولت على أخطر البقاع الإسلاميّة؛ فقد استولت على الهند القارة الضخمة التي كان يحكمها المسلمون، ثم مصر (قلب العالم الإسلامي)، وتقاسمت مع روسيا السيطرة والنفوذ في إيران، واستولت على الخليج وسلطناته. كما أنّ الإنجليز هم الذين قضوا على الدولة الإسلاميّة الكبرى، التي كانت تمثّل القوة الصامدة المقاومة للنفوذ الأجنبي، وهم الذين أزالوا دولة الخلافة العثمانيّة، وأذلّوا المسلمين في كل البلاد[٢]. ولأنّها - أيضًا - قد أدركت أنّ الدين الإسلامي يمثّل هويّةً مميّزةً للشرقي منذ عصر الفتوحات الإسلاميّة، فهو معيار التفرقة بين الجميع، فلا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى. وأنّه لا هوية للحاكم في كلّ العصور تُميّزَه سوى أنَّه حاكمٌ مسلم. ومع وقوع معظم الدول العربيّة تحت السيطرة التركية، قوي التأكيد على الهويّة الإسلاميّة، هوية الدين، على حساب هوية اللغة رغبةً في دمج القوميّات الأخرى المتعايشة مع الأتراك داخل الإمبراطورية التركيّة القائمة حينذاك أو ما سمّي وقتها بـ (التتريك).

ولذلك سعى الاحتلال الإنجليزي إلى إثارة العديد من الشبهات حول الإسلام، وطعن في الشريعة الإسلاميّة، ودعا إلى استبدالها بالقانون الوضعي الأوروبي، وربط تقدّم المسلمين بنبذ القرآن والإسلام واللغة العربيّة، فقال المستشرق الإنجليزي إدوارد دور الذي صاحب الاحتلال:» إنّ أول ما يجب أنْ يبدأ به إصلاح التعليم الابتدائي في مصر هو الإعراض عن الدراسة الكاملة للقرآن»[٣]. وسعى الإنجليز إلى ضرب الدين الإسلامي من خلال تحطيم الأخلاق والقيم والعادات الإسلاميّة. وسعوا إلى القضاء على الإسلام في نفوس المسلمين لكيلا يبقي منه إلّا اسمه، وأرادوا إيقاف انتشاره بكلّ الطرق، وشوّهوه في نظر الشعوب الغربيّة. فمنعوا دخول المسلمين وعلمائهم جنوب السودان، وحالوا بين تعليم المسلمين من سكان تلك الجهات أحكام الدين وآداب

١. انظر، أنور عبد الملك، نهضة مصر - تكون الفكر والأيديولوجية في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥-١٨٩٢م)، ص٣٧٠.

٢. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٤٠١.

٣. انظر، أنور عبد الملك، نهضة مصر، ص٣٩٢.

المسلمين[١]. كما أنّهم (الإنجليز) هم من ألغى الخلافة الإسلاميّة، وحالوا بين المسلمين وبين إعادتها، وإليه يرجع الخطر الأكبر في إقامة دولة اسرائيل في قلب العالم الإسلامي. فهو الذي مكّن لها ذلك، وأتاح لها الفرصة لمليون يهودي أقطعهم الأراضي وأمدّهم بالسلاح والعتاد، وجعل منهم قوةً عسكريّةً ذات بأسٍ تهدّد الحجاز ومصر وسوريا ولبنان والعراق وسائر بلاد العرب[٢].

كما حرص المستعمِر الإنجليزي على إفساد الدين الذي يشكّل منبع وحدة الفكر ووحدة الشعور بين أفراد الشعوب المستعمَرة وجماعاتها؛ ولذلك كان حريصًا على أنْ يفسد كلّ ما يحافظ على الوحدة أو التواصل، وذلك من خلال آليتين:

الأولى: أنْ يضرب كلّ قوةٍ مناهضةٍ له، تحت أيّ رايةٍ تجمعت.

الثانية: أنْ يحول في كلّ الظروف، بينها وبين أنْ تتجمع تحت رايةٍ أكثر فعاليّة[٣].

ولم تكن هناك رايةٌ أكثر فعاليّة في البلاد الإسلاميّة أكثر من الدين الذي يستطيع أنْ يحشد الناس ويحثّهم على الجهاد ضدّ المحتل الغاشم إلى أنْ يتحقّق النصر أو الشهادة، وكلاهما مطلب كثيرٍ من المسلمين. فكان من الطبيعي أنْ يؤرّق الدينُ المحتلَّ أينما كان. ولذلك كانت حرب الاستعمار الإنجليزي للإسلام حربًا لا هوادة فيها؛ بوصفه العامل الدافع إلى القوة والجهاد والمقاومة. وكانت هذه الحرب بأساليب مختلفة، منها:

أولًا: نقض مفاهيم الإسلام وتحريفها، وخلق دعواتٍ تحمل لواء الإسلام، وتتنكر لأهم مقوّماته وهو (الجهاد) الذي هو ذروة سنام الإسلام. حيث ألغته الغاءً، أو قللت من أهميته، أو عملت على تفسيره تفسيرًا خاطئًا.

ثانيًا: الطعن على الإسلام والحمل على مقوماته واتهامه بأنّه مصدر تأخّر المسلمين وضعفهم[٤].

وفي الحقيقة ما زال المستعمِر الراهن يعزف على هذا الوتر الحسّاس إلى يومنا هذا، فإذا كان في الماضي يتنكر للمفاهيم الإسلاميّة وعلى رأسها الجهاد، أو يحرّف ويغيّر معناها، فإنّه اليوم يقوم بعملية انتقاء لهذه المفاهيم ويقوم بتوظيفها لخدمته ولصالحه. فيستغلّ على - سبيل المثال لا

١. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٤٠٢

٢. المرجع نفسه، ص ٤٠٢

٣. مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، ص ٢٩.

٤. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٣٩٧.

الحصر - مفهوم (الجهاد) ذاته لصالحه، وعلى طريقة الحرب بالوكالة دون أنْ يخسر شيئًا؛ هو فقط يوقع الفتنة، ثم يبيع السلاح مقابل أنْ يستولي على النفط وسائر الخيرات من دون نسبة أو تناسب بين المُباع والمشترى، والنتيجة انهيار الأمم في حروبٍ ضدّ جماعاتٍ فهمت الجهاد بالطريقة التي أراد المستعمِر لها أنْ تفهمه. وما داعش من هؤلاء ببعيد. حيث لم تحقق هذه الجماعات الجهاديّة سوى الخراب للإسلام والمسلمين في كلّ بقاع العالم الإسلامي شرقًا وغربًا. والرابح الوحيد هي الدول الغربيّة الاستعماريّة الكبرى، ثم اسرائيل التي باتت تشعر بالأمن والأمان، بل باتت صواريخها وطائراتها تصيب أيّ مكانٍ تستشعر منه الخطر في العالم الإسلامي بحجة القضاء على الإرهاب والإرهابيين.

أمّا الطعن على الإسلام وتصويره على أنّه سبب تأخّر المسلمين وضعفهم، فهي دعوةٌ قديمةٌ حديثةٌ، ما زالت تلوكها ألسنة المستغربين، فقد دأبت الدراسات التغريبيّة على تشبيه موقف الدين الإسلامي من العلم بموقف الكنيسة الكاثوليكية من العلم في عصر النهضة. وأنَّه لم يكن هناك بدٌ أمام أوروبا إلّا أنْ تنحّي الدين ورجاله وكنيسته جانبًا لتتطور وتتقدم وتنهض، وأنّها حينما تخلّصت من الدين وسادت العَلمانية الشاملة تحقّق لها ما أرادت من تقدّمٍ علمي وتقني وحضاري. ومن ثم فلا سبيل أمام الأمة الإسلاميّة والعربيّة إذا أرادت أنْ تلحق بركب الحضارة إلّا أنْ تُنحّي الدين جانبًا، وتسلك المسلك الغربي نفسه.

رغم أنّ العلم في الإسلام مطلبٌ شرعيّ وفريضةٌ دينيّةٌ كثر الحديث عنها في القرآن الكريم وفي السنّة النبويّة المطهّرة. بل إنّ المتأمل في أوّل آيات القرآن الكريم سيجدها (اقرأ)، وأنّ ثاني سور القرآن الكريم نزولاً هي (سورة القلم). الأمر الذي يحمل كثيرًا من المعاني والدلالات. هذا فضلاً عن العديد من الآيات والأحاديث النبويّة الصحيحة التي تعلي من شأن طلب العلم، وضرورة الحرص على طلبه، والتفكر في خلق السماوات والأرض، وأنّ المرء كلما ازداد علمًا بالصنعة وبالعالم ازداد إيمانًا بالخالق. فليس في الإسلام أبدًا (أطفئ سراج عقلك، ثم اتبعني).

رابعًا. الاستعمار والثقافة

تعتمد هويّة أيّ أمةٍ على ثقافتها الذاتيّة التي حاولت الإجابة عن تساؤلاتها الخاصّة، وتقوم الهويّة المصريّة على الثقافة الإسلاميّة التي تربط بين غالبيّة المصريين. ولقد حاول الاحتلال الإنجليزي منذ أنْ جثم على صدور المصريين أنْ يتخلّص من نفوذ الثقافة الفرنسيّة، وأنْ يحل محلّها الثقافة الإنجليزية، فجعل اللغة الإنجليزيّة لغة الدراسة بالتعليم القومي، ونجح في إزاحة

اللغة الفرنسيّة تدريجيًا من المدارس الحكوميّة، وتخلّص (دنلوب) من الموظّفين الفرنسيين، وأحلّ محلّهم مدرّسين إنجليز. وقد أضر كلّ ذلك باللغة العربيّة أيضًا غير أنّ الجهود الوطنيّة قد نجحت في إعادة اللغة العربيّة - منذ أيام سعد زغلول- لتصبح لغة الدراسة في التعليم القومي، وإنْ كان الإنجليز قد نجحوا في جعل اللغة الإنجليزيّة اللغة الأوروبيّة الأولى في مدارس التعليم القومي الحكومي، إلّا أنّ الثقافة الفرنسية خارج هذا الميدان ظلّت محتفظةً بتفوقها على الثقافة الإنجليزيّة في مصر حتى الحرب العالمية الأولى[١].

وقد أدرك الاستعمار الإنجليزي أنّ الثقافة الإسلاميّة هي الوعاء الأكبر الذي يمثّل الهويّة الوطنيّة لعموم الشعب المصري؛ حيث تنطلق عقليّة المصريين من النصّ الديني سواء أكان القرآن الكريم أم السنّة النبويّة المطهّرة. فعمل على تغيير هذه العقليّة والقضاء على تلك الثقافة القائمة على التراث، ورأى أنّ تغيير هذه الثقافة هو الهدف الأمثل والأمل المنشود، وهذا يفهم من مقولة كرومر: « إنّ مصر يجب أنْ تطبع بالطابع الأوروبي، ويجب أنْ يكون الإنجليز هم العنصر الرئيس في هذا التحويل»[٢].

ولما كانت الثقافة المصريّة مرتبطةً أشد الارتباط باللغة العربيّة والدين الإسلامي؛ فقد نالت الحظ الأوفر من الهجوم الاستعماري. الذي رأى أنّ وسيلة تغيير الثقافة تكمن في التعليم، فحرص على غزوٍ تعليميّ وثقافيّ ضخم، وذلك عن طريق إرساليّاته ومعاهده الأجنبيّة، فاستطاع تخريج أجيالٍ جديدةٍ على وفق مفاهيمه، وأتاح لهذه الأجيال السيطرة والقيادة والزعامة والحكم في أغلب أنحاءٍ العالم الإسلامي، كما أطلق حركة التبشير لتحكم تنفيذ هذه الخطة، وفرض على الدولة المحتلّة أنظمةً تعليميّةً قوامها تحقيق هذا الهدف. ومن هنا جاء ما وصف بأنّه محاربة للإسلام واللغة العربيّة[٣].

وهنا يمكننا القول إنّ الاستعمار الإنجليزي وجَّه سهامه المسمومة إلى الثقافة الوطنيّة، وقام بالتمييز بين ثلاثة تحديدات ممكنة فيما يخصّ الثقافة، الأول عقلي، يرفض كافة العلوم والفنون والفلسفات العربيّة الإسلاميّة مدّعيًا أنّها أصبحت باليةً لا تصلح للحاضر ولا للمستقبل، وأنّ دراستها مضيعةٌ للوقت؛ لأنَّ العقل الذي أنشأها عقلٌ ماضويّ انتهت صلاحيته في الوقت الحاضر،

١. جرجس سلامة، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢م)، ص٩.

٢. انظر، أنور عبد الملك، نهضة مصر – تكون الفكر والأيديولوجية في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥-١٨٩٢)، ص٣٧١.

٣. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص٣٩٦- ٣٩٧.

ولا بدّ من تجاوز هذا العقل الأصولي أو الكلامي أو الصوفي، إلى العقل العلمي المملوء بالثقافة التقنية والعلميّة المعاصرة. والثاني سياسي، يرفض كافة الحكومات الدينيّة ونظام الخلافة، والدعوة إلى الديمقراطيّة الغربيّة التي يجب أن تتشبّع بها قلوب الجماهير وعقولهم قبل أنْ يفرضها الساسة على أرض الواقع. والثالث أنثروبولوجي، يحاول تحرير المرأة من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى تحرير العقول من كافة العادات والتقاليد التي ورثوها عن المجتمع الزراعي أو البدوي بما فيها المعتقدات الدينيّة والأعراف والأخلاق، والتحلّي بقيم وعادات وتقاليد وأخلاق المجتمع الصناعي على غرار النمط الأوروبي.

ومن ثمَّ رأى كرومر أنّ الشرق يتميّز بالخصائص الآتية: الاستبداد، والحكم غير المباشر، ونظام غير مهذّب للقانون العالمي، والشريعة الدينيّة، وتعدّد الزوجات، وانزواء المرأة، والعبوديّة، والقسوة في العقوبات البدنيّة، والملابس الفضفاضة، والأبجدية المعقّدة، والشعر والنثر المجازي. أمّا أوروبا فتتميز بإحدى عشرة سمة يجب أنْ تحلّ محلّ خصائص الشرق وسماته، وهي: الحكم الحر، والحكم المباشر، ونظام مواكب للقانون العالمي، والقانون المدني، والزواج الفرد، وحرية النساء، والحرية المدنية للجميع، والملابس الملتصقة بالجسم، والأبجدية البسيطة، والنثر الجدلي (المتعقّل) [١].

وعلى هذا عمل المستعمِر الإنجليزي من خلال آلياتٍ ثلاث هي التعليم (الغزو الثقافي)، والتبشير، والاستشراق:

١. التعليم والغزو الثقافي

فطن المُسْتَعْمِرُ الإنجليزي إلى مدى احترام الثقافة الإسلاميّة للتعليم وتعويلها عليه بوصفه أهمّ سُبل النهضة، فحاول أنْ يفيد من ذلك إلى أبعد الحدود، وأنْ يسخّر التعليم لتحقيق أهدافه ومآربه؛ لذلك لم يكن غريبًا أنَّ يجعل المستعمِر الإنجليزي من قضية التعليم كبرى معاركه، وأعظم عوامل تثبيت أركانه وقواعده. فعمد إلى إقامة الإرساليات والمدارس الأجنبيّة الكبرى ليبث من خلالها ثقافته بدلاً من الثقافة الوطنيّة التي تدعم الهويّة الإسلاميّة. وأدخل تعليم اللغة الإنجليزيّة في جميع مراحل التعليم، ثم حاول تدريس بعض المواد باللغة الإنجليزيّة، توطئةً

١. انظر، أنور عبد الملك، نهضة مصر، ص٣٦٩.

لتدريسها جميعًا بتلك اللغة، ممّا أثار ثائرة الصحافة المصريّة، وكان موضع نقدها الشديد. وقد هدف الإنجليز من وراء ذلك إلى هدفين: أولهما اضعاف اللغة العربيّة إذ وجدت بجوارها لغة أجنبيّة تزاحمها، وتصرف جهد التلاميذ عن لغتهم القوميّة، إلى اللغة الأجنبيّة. والآخر القضاء على القوميّة العربيّة والروح الوطنيّة، وتحويل الشباب المصري بالتدريج نحو العادات والتقاليد الإنجليزيّة[١].

كما قصر التعليم على الطبقات العليا فقط من المجتمع؛ إذ إنّه بعد أنْ كان التعليم في جميع درجاته بالمجان، بل كان الطلاب يتلقّون معوناتٍ ومنحًا ماليّة، بالإضافة إلى الطعام والكساء، أصبح التعليم بمصروفاتٍ عالية، ومعنى ذلك ألاّ يُقبل على التعليم إلاّ من كان قادرًا على دفع نفقاته. فانحصر التعليم على أولاد القادرين فقط دون عامة الشعب، حتى وصلت نسبة الأميّة إلى مستوياتٍ عاليةٍ جدًّا، قُدّرت بين ٩٢٪ بين الذكور، و٩٧٪ بين الإناث[٢].

وسيطر الإنجليز بالفعل على التعليم سيطرةً تامة، وتولّى المناصب العليا فيه موظّفون من الإنجليز الاستعماريين، وقد وُضِع على رأس هذه الوزارة مستشارٌ إنجليزي، هو المستر دنلوب، الذي طغى بجبروته على الوزير المصري، وحشد جيشًا من المدرسين الإنجليز في المدارس الثانويّة والعالية، لتدريس اللغة الإنجليزيّة، وبعض المواد الأخرى. وقد كانت مهمة هؤلاء المدرّسين الأساسيّة، تحطيم الروح الوطني في نفوس الطلاب، وبثّ روح الاستكانة والضعف في قلوبهم، وإغرائهم على الرضا والتسليم، باحتلال الإنجليز لبلادهم، وإيهامهم أنّ هذا الاحتلال أبديّ، لا فكاك لمصر من ربقته، فإذ أُجلي الإنجليز عن مصر، فلا بد أنْ تحلّ محلّهم دولةٌ أخرى من الدول الطامعة فيها. فالخير كلّ الخير، والحالة هذه، إنّما هو في الرضا باحتلال الإنجليز، وقبول حكمهم[٣]. خلاصة القول أنّ التعليم في عهد الاحتلال لم يكن سوى وسيلةٍ لتثبيت أقدام المحتلّ الإنجليزي في مصر، وكان وسيلةً لتخريج مجموعةٍ من الموظّفين ليعملوا في إدارات الحكومة ومصالحها، ويكونوا طوع إرادة رؤسائهم من الإنجليز، يطلبون لهم الرضى حتى يرضوا.

١. شحاتة عيسى إبراهيم، الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، ص ٦٦.

٢. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٦٦.

٣. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص ٦٦.

وهو الأمر الذي حرص عليه الاستعمار منذ بداياته في مصر؛ إذ رأى ضرورة أنْ يرافق الاحتلال السياسي احتلالٌ معنويّ بحيث يتقرب أهالي المستعمَرات من المستعمِرين إلى أنْ يندمجوا فيهم اندماجًا، وأنْ يتعلّم الأهالي تعليمًا ينشئ في نفوسهم حبّ المستعمِر فيستسلمون له طواعية. وإذا كان هذا هو الهدف الأكبر فإنّ هناك هدفًا آخر يتصل به، ألا وهو القضاء على الثقافة القوميّة، وذلك عن طريق الطعن فيها، وإثارة الشكوك حولها والشبهات في أعماقها، حتى نظر إليها المواطن نظرة الازدراء والاحتقار، وأخذ يعلي عليها ثقافة المستعمِر الذي تُقَدَّم له في قالب برّاق، وتُعرض عليه عرضًا حافلاً بالقوّة والبطولة [١].

وهذا عين ما يُقصد بمفهوم الغزو الفكري أو الغزو الثقافي والذي يعني اصطلاحًا: « الجهد البشري المبذول ضدّ عدوٍ ما، لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده، وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيًا إذا أمكن، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب، وإنْ كان في نفس الوقت هو أقصى درجات نجاح الغزاة. وسلاح هذا الغزو هو: الفكر، والكلمة، والرأي، والحيلة، والشبهات، وخلابة المنطق، وبراعة العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف والصاروخ في أيدي الجنود، والفارق بينهما هو نفس الفارق بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديمًا وحديثًا» [٢].

ومن ثم كان الهدف الرئيس الذي وضعه المستعمِر الإنجليزي وابتغى تحقيقه من الغزو الثقافي هو التشويش على كلّ ما يمكن أنْ يبرز الذاتيّة العربيّة والهويّة العربيّة المستمدة من الفكر الإسلامي. فحرص على أنْ تؤسِس مناهج التعليم في البلاد المستعمَرة لعزلةٍ أقليميّةٍ بين الدول والشعوب، فلا يدرس الطالب سوى أقليمه فقط دون معرفة أيّ شيءٍ عن الأقاليم الأخرى حتى يقضي تمامًا على بذور أيّ فكرةٍ من الممكن أنْ تدعو إلى التوحيد أو التكامل الاقتصادي في المستقبل. هذا فضلاً عن تركيز هذه المناهج التعليميّة بصورةٍ واضحةٍ على تدريس ثقافة المستعمر وتاريخه ودينه ولغته على نحوٍ واسع الإغراء للشاب المسلم، مبتعدةً به عن تاريخه

١. انظر، أنور عبد الملك، نهضة مصر، ص٣٣٤.

٢. عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص ٢١.

ولغته ودينه بالهجوم والتشكيك، وإثارة الشبهات، والربط بينه وبين تاريخ المستعمِر ودينه ولغته ومكانه من الحضارة، والربط بين تاريخ الأمم الإسلاميّة ودينها، وبين وقوعها تحت نفوذ الاستعمار وتخلّفها[١].

كما حرص الاستعمار الإنجليزي أيضًا على تجميد التعليم في الأزهر، وأنشأ نظامًا تعليميًّا آخر مستقلاً عنه تمثّل في المدارس الأجنبيّة ومدارس الإرساليّات، له طابعه الغربي الخالص، وجعل مدارسه ومعاهده هي التي تؤدي إلى المناصب والنفوذ والثروة في حين أبقى خريجي المعاهد الأزهريّة في درجة منخفضة. وقد كان لهذا الازدواج العلمي وهذه الثنائية أثرهما البعيد المدى في الأخطار التي واجهتها مصر طوال هذه الفترة[٢].

وهكذا عمل الاستعمار الإنجليزي على طمس الهويّة الوطنيّة عن طريق التعليم وبرامجه ومناهجه المختلفة التي انتشرت في غالبيّة الشعوب الإسلاميّة، وساعدها في ذلك قوّة نفوذ الدول الاستعماريّة في البلاد الإسلاميّة. في حين ضعفت المعاهد والمدارس الإسلاميّة ضعفًا بيّنًا.

٢. التبشير ودوره الاستعماري

في ظلّ الاستعمار الإنجليزي لمصر تدفّقت البعثات التبشيريّة من مختلف البلاد الاستعماريّة إلى كافة ربوع مصر، وبنت مدارسها وكنائسها ومستشفياتها بدعمٍ من النفوذ الاستعماري الإنجليزي، وبدأت تعرض خدماتها على المصريين. وقد كانت حركات التبشير من أكبر الأعمال التي اعتمد عليها الاستعمار في تركيز وجوده وبقائه، ليس فقط في خلال فترة احتلاله لهذه الأقطار، بل لإعداد ركائز تبقى بعد جلائه عن طريق أجيالٍ تستقطب مفاهيمه وقيمه. فحركة التبشير هي في المقام الأول حركةٌ استعماريّةٌ لخدمة النفوذ الأجنبي. وكان مقصدها الأول هو هدم الثقافة الدينيّة الإسلاميّة في قلوب المسلمين وبيان تخلّفها ورجعيتها.

وقد اجتاحت هذه الحملات التبشيريّة مصر كلّها، بل والعالم الإسلامي كلّه، ونجحت في صناعة عملاء لها من أبناء مصر والمقيمين فيها، وكان أشهر هؤلاء وأبعدهم صيتًا وشهرةً جورجي

١. أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، ص٣٣٨.

٢. عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص٣٤٢.

زيدان، ويعقوب صروف، وفؤاد صروف، وفرح أنطون، وشبلي شميل، وسلامة موسى، وقد نجح هؤلاء نجاحًا كبيرًا في اختراق الصف المصري. وأمام نجاح هؤلاء في مهمتهم اندفع المبشر الإنجليزي (زويمر) في جرأةٍ غريبةٍ، فدخل الجامع الأزهر ووزع منشوراته فيه! وقد نجحت تلك الحملات التبشيريّة نجاحًا كبيرًا في جنوب السودان حيث أوجدت فاصلاً كبيرًا بين الشمال والجنوب، وحالت بين المسلمين في الشمال والجنوب حتى انحصر الإسلام في الجنوب أمام قوة الحركات التبشيريّة المدعومة بالمال وبالكثير من الخدمات التي يحتاجها الجنوبي برعايةٍ كاملةٍ من المحتل الإنجليزي في مصر، الأمر الذي أدّى في النهاية إلى فصل الجنوب عن الشمال، وأصبحت جنوب السودان دولةً مستقلةً ليس لها من الهويّة العربيّة والإسلاميّة شيءٌ يُذكر.

ويرى بعض الباحثين أنّ الهدف الأسمى للحملات التبشيريّة هو هدف الاستعمار نفسه، وهو طمس الهويّة الوطنية، فقد «رأى المبشِّرون والمستعمِرون عظمة الثقافة العربيّة الإسلاميّة، وأنّها مصدر عزة الشرق وللعرب والمسلمين. ثم أيقنوا أنّ أمة لها هذه الثقافة لا يمكن أنْ تخنع أو تذلّ أو تبيد. وهكذا انصرفت أذهان هؤلاء المبشِّرين والمستعمِرين إلى تشويه وجه هذه الثقافة، وإلى الحطّ من شأنها في نفوس أصحابها»[١]. ولذلك عملت حركات التبشير برعاية المستعمِر الإنجليزي في مصر إلى تشويه ما هو إسلامي أصيل، والحطّ من قيمته. وبيان تهافت إسهام العرب والمسلمين في الحضارة الحديثة.

٣. الاستشراق وخدمة الاستعمار

عهدت إنجلترا إلى اللورد دوفرين سفيرها في القسطنطينية وأحد أهم المستشرقين الإنجليز في ذلك العصر، بدراسة حالة مصر وتقديم مقترحاته عن الإصلاحات التي يرى إدخالها فيها. وطبعًا ليس المقصود بتلك الإصلاحات ما يعمل على تقدّم مصر ورقيها، ولكن المقصود تثبيت قدم الإنجليز فيها، ودوام سيطرتها عليها، وتحويلها إلى مستعمَرةٍ بريطانيّة[٢].

وقد عكس اللورد دوفرين دور المستشرقين على الوجه الأمثل؛ إذ حضر لورد دوفرين إلى

١. مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربيّة، ص ٢١٨.

٢. شحاتة عيسى إبراهيم، الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، ص ٥٦.

مصر في ٣٠ من أكتوبر عام ١٨٨٢م، أي بعد إتمام الاحتلال بخمسةٍ وأربعين يومًا، ومكث بها ستة أشهر، يضع تقريره المشهور، الذي أرسى فيه الأسس العامة، والخطوط العريضة للحماية المقنَّعة، والذي صار دستورًا للاحتلال، وقانونًا أساسيًّا التزمه طوال بقائه في مصر. ولقد كانت الغاية التي هدف إليها التقرير هي إضعاف مصر وسحق الروح الوطني فيها، والقبض على ناصية الجيش والشرطة، ومحو شخصيتها ومركزها الدولي، بالتصرّف في شؤونها الخارجيّة، والسيطرة على شؤونها الداخليّة، والعودة بها إلى مجاهل العصور الوسطى، بإلغاء الدستور، والقضاء على المجلس النيابي، والتغلغل في وزارات الحكومة ومصالحها، وإغلاق المدارس ومعاهد العلم، والاكتفاء من التعليم بتخريج موظّفين يعملون في إدارات الحكومة ومصالحها [١].

ولذلك يمكننا القول إنّ الاستشراق هو الحركة الأخطر في فكر الاستعمار؛ بوصفها المصنع الذي يعدّ الخطط والاستراتيجيّات التي يسير في ضوئها المحتلّ العسكري، كما يعدّ الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلاميّة[٢]. وما يدلّ على ذلك هو تعجيل إنجلترا في العمل على تنفيذ بعض اقتراحات اللورد دوفرين، قبل مغادرته مصر، وقبل رفعها إلى وزارة الخارجيّة البريطانيّة، وقد عاون الخديو توفيق على تنفيذ تلك الاقتراحات بكلّ أمانةٍ وإخلاص، وكان وجود جيش الاحتلال ضمانًا لسحق أيّ معارضةٍ تقوم في وجه تنفيذها[٣].

وقد تعدّدت أهداف حركة الاستشراق التي تعمل في الأساس على تفريغ الهويّة الإسلاميّة من مضمونها عن طريق تجنيد أجيالٍ منسلخةٍ من هويّتها متأثرة بالمذاهب الغربيّة الوافدة، وإصدار الموسوعات العلميّة والدوائر المعرفيّة التي تضم معلوماتٍ اجتماعيّةٍ ودينيّةٍ وثقافيّةٍ وسياسيّةٍ واقتصاديّة عن المجتمعات الشرقيّة يستغلّها المحتلّ ضدّ الشعوب الإسلاميّة، عن طريق دسّ بعض الأكاذيب والضلالات التي تستند إلى حوادث فرديّةٍ وأحداثٍ استثنائيّةٍ وقعت في التاريخ الإسلامي للتشكيك، وإلقاء الشبهات والمغالطات، وافتراء الأكاذيب، ودسّ السموم الفكريّة؛

١. عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ص٥٧.

٢. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير- الاستشراق – الاستعمار، كتاب اليكتروني على الرابط التالي:

http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?7048-

٣. شحاتة عيسى إبراهيم، الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، ص٥٧.

لتكون مرجعًا علميًّا للكثير من الباحثين العرب والمسلمين؛ ولذلك يجب توخّي الحذر في الرجوع لمثل هذه الموسوعات والإصدارات العلميّة.

ومن ثم كانت حركة الاستشراق إحدى أذرع الاستعمار وواحدةُ من أهمّ أدواته التي عنيت بدراسة أوضاع الشعوب والأوطان المستعمرة، تغنيها درسًا وتخطيطًا ومكرًا لتطيل فترة سيطرتها، وتستمر في استنزاف خيراتها، واستغلال ثرواتها، ولتعطّل يقظتها وتمنع انبعاثها. وهذا ما نلاحظه من الكتابات المتنوّعة - العدائيّة والمغرضة – لكثيرٍ من المستشرقين الذين مهّدت أعمالهم الطريق لطلائع الغزاة والمستعمرين والصهاينة، ليدخلوا البلاد، ويستعمروا الشعوب، ويُزوّروا الحقائق[١].

. كما بذل الاحتلال الإنجليزي جهودًا غير عاديةٍ للدعوة إلى حرية المرأة على الطريقة الغربية التي تبدو فيها المرأة خارجةً على جميع الأعراف والعادات والتقاليد الشرقية، فبرزت نسوةٌ من كبار القوم في مصر خلعن الحجاب، وتحرّرن من الثقافة الإسلاميّة من أمثال هدى شعراوي (١٨٧٩-١٩٤٧) التي تلقت تعليمها على أيدي مربّيات أجنبيّات، فأتقنت الإنجليزيّة كما أتقنت الفرنسيّة مع معلمتها الفرنسيّة، بالإضافة إلى أنّها حفظت القرآن، لكنّها لم تتقن العربيّة تمامًا كما جاء في مذكّراتها، إذ تقول: «ختمت القرآن فظنّ من حولي أنّني ملكت ناصية اللغة العربيّة والديانة، ولكني في الحقيقة لم أستطع قراءة شيءٍ غير القرآن؛ لأنّه مشكل، ولا أعرف من علوم الديانة إلّا كيفيّة الوضوء والصلاة...»[٢]. فكانت ناشطةً نسويّةً أسّست الاتحاد النسوي المصري، وكان لحركتها النسويّة دورٌ مركزيٌّ في التغيير الذي طرأ على أوضاع المرأة، وبالتالي في التحوّل الهائل الذي مرّ به المجتمع المصري في النصف الأول من القرن العشرين.

وانطلاقًا من تلك الفلسفة الغربيّة التي تنظر إلى تحرير المرأة من خلال مقولة (النِّدِّية) القائمة على التماثل بين الرجل والمرأة، منكرةً طبيعة التمايز الطبيعي بينهما، فحلّت المرأة محلّ الرجل معتقدةً أنّها بذلك قد حقّقت انتصاراتٍ لبني جنسها. وبالتزام المرأة الشرقيّة بهذه الفلسفة

١. منذر معاليقي، الاستشراق في الميزان، ص ٨.

٢. شعراوي، هدى، مذكرات هدى شعراوي، ص ١٦٩.

الغربيّة للتحرير[١] تفقد - بصورةٍ تامةٍ وواضحةٍ - هويّتها الوطنية، وتتحوّل – كما يقول محمد عمارة – إلى: «غانية رومانسية أو مسترجلة اسبرطية، أو صورة غلاف، وإعلان سلعة رأسمالية أو جارية مملوكية»[٢].

وهكذا تعرّضت الثقافة العربيّة الإسلاميّة بتحريضٍ متعمّدٍ من المستعمِر البريطاني لهجماتٍ ظالمةٍ، شنّها عليها باحثون ومؤلّفون، كانوا يمسكون بالأقلام كمعاول للهدم والتجريح والتشويه في عملٍ ظاهرهُ فيه خدمة العلم والمعرفة والبحث التاريخي، وباطنه الهجوم على التراث العربي الإسلامي وعلى الثقافة الإسلاميّة[٣]. وقد قام هؤلاء المستشرقون الاستعماريون بذلك للانتقاص من العقليّة العربيّة، ومن إسهامها الحضاري بغرض طمس المناطق المنيرة في الهويّة العربيّة الإسلاميّة التي يمكن أنْ تكون منطلقاتٍ حقيقيّةٍ للنهضة الحديثة.

الخاتمة والنتائج

وقد توصّل هذا البحث إلى مجموعةٍ من النتائج المهمّة، نقف عليها فيما يلي:

أولًا- أقدمت إنجلترا على استعمار مصر لأهميّتها الاستراتيجيّة؛ إذ إنّها أدركت أهميّة موقع مصر الجغرافي بوصفها الباب الأمامي لإفريقيا المؤدّي إلى وسطها، ومن ثم إلى بابها الخلفي، وهو جنوب إفريقيا، الذي يقع تحت سيطرتها بالفعل، فتصبح بذلك صاحبة اليد الطولى في إفريقيا، إذ بعد احتلالها مصر وضمها إليها، وضم السودان أيضًا إلى مستعمراتها، تصبح مستعمراتها في إفريقيا متراصةً، متصلةً بعضها ببعض، كجدارٍ منيع، يختط القارة من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ويقف سدًا منيعًا في وجه منافسي إنجلترا من الدول الاستعماريّة الأخرى في القارة. ومن ثم خطط الإنجليز لاستعمار يدوم أبدًا، وتحويل مصر إلى مستعمَرةٍ بريطانيّةٍ ضمن الإمبراطوريّة البريطانيّة التي لا تغرب عنها الشمس.

---

١. يمكن القول إنّ التحرير الإسلامي للمرأة أعمّ وأشمل من تلك (النديّة) الغربية، ولا يقدح في ذلك فكرة (القوامة) الإسلاميّة؛ فقد كفل الإسلام الحرية للمرأة، فجعل لها ذِمّةً ماليّةً خاصّة، وأعطى لها الحقّ في اختيار شريكها، والحقّ في الانفصال عنه. وما (القوامة) سوى درجةٍ استحقها الرجل لتميز طبيعته في ميادين معينة، ولا تعني بحالٍ من الأحوال الانتقاص من مبدأ المساواة، فيقابل قوامة الرجل في الأمور التي تناسب طبيعته بوصفه رجلًا قوامة المرأة في الأمور التي تناسب طبيعتها بوصفها أنثى.

٢. محمد عمارة، الغزو الفكري وهم أم حقيقة، القاهرة، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، ص ٢٦٠

٣. التويجري، عبد العزيز بن عثمان، مقدمة كتاب: محمد فاروق النبهان، الاستشراق- تعريفه، مدارسه، آثاره، ص ٥.

ثانيًا- حاول الاستعمار الإنجليزي أنْ يخدع الشعب المصري ويقنعه بأنَّه ما جاء إلاّ من أجل عملٍ حضاري وإنسانيّ يهدف إلى ترقية المصريين بحجة أنّ الجنس الأبيض هو صاحب الحضارة المسؤول عن تمدين الأجناس الملوّنة، فاستعمل هذا المفهوم المخادع والمناقض تمامًا لمدلول الفعل الحقيقي لطمس هويّة الشعب المصري الذي وقع تحت سيطرته الاستعماريّة، وذلك لتذويب هويّته الإسلاميّة في الفكر الغربي بصفته هو الفكر العالمي المسيطر؛ فيفقد المصريّون هويّتهم، ويسقطون تابعين للثقافة الغربيّة.

ثالثًا- استخدم المستعمِر الإنجليزي مختلف السُبل التي تمكّنه من بسط سلطانه، وتمديد فترة احتلاله لمصر، حتى يتسنّى له استنزاف خيراتها واستغلال ثرواتها، ولا مانع من تحويلها إلى أمةٍ تابعةٍ له في ثقافته وفكره ولغته ودينه، فتظلّ أبد الدهر منصاعةً له محتاجةً إليه لا سبيل لها بالانفكاك عنه؛ ولذلك كانت مسألة طمس الهويّة الوطنيّة شغله الشاغل، وهمّه الأول، حيث إنّها السبيل المناسب لتحقيق كلّ مطامعه وأهدافه الاستعماريّة.

رابعًا- عمل المستعمر الإنجليزي طمس المكونات الرئيسة للهوية العربيّة الإسلاميّة المتمثلة في: اللغة العربيّة، والدين الإسلامي، والثقافة العربيّة الإسلاميّة؛ أمّا اللغة فعمل على تغييرها إلى لغةٍ غريبةٍ تمهيدًا لتحويل الشعوب العربيّة إلى لغته الأصلية، فراح يشيع أنَّ اللغة العربيّة لغةٌ صعبةٌ كثيرة القواعد لا تفي مفرداتها بمتطلبات النهضة العلمية الحديثة؛ ومن ثم يجب التخلّي عنها والتمسّك بلهجات الشعوب العاميّة، وإلغاء قواعدها النحويّة، واستبدال الخطّ اللاتيني بخطّها العربي. أمّا الدين فقد أحاطوه بموجات التشكيك، وأرجعوا كلّ أسباب التخلّف الذي عمَّ بلاد المسلمين إليه. بل إنَّهم أشاعوا أنه يغذي النزعات العدائيّة بين الشعوب، وهو المنبع الأول للأعمال الإرهابيّة والعدائيّة في العالم. أمَّا الثقافة وهي الوعاء الأكبر الذي يحمل الهويّة الوطنيّة من حيث إنّها تقوم على دعامتي اللغة والدين الإسلامي فقد نالت النصيب الأكبر من حملات النقض والهدم، فوجهت إليها عمليات الغزو الفكري، وحملات التبشير، وحركات الاستشراق. وهكذا كانت خطة المستعمِر الإنجليزي لطمس الهويّة العربيّة الإسلاميّة للمصريين بما فيها من خداعٍ وتضليلٍ وتحريفٍ وتشويهٍ لحقائق الأمور. ترمي في النهاية إلى مسخ ونسخ وتشويه هويّتنا العربيّة الإسلاميّة، لتتأبد تبعيتنا الحضاريّة للغرب، ونفقد كلّ هويّةٍ مميزة.

خامسًا: جرّد الاستعمار الإنجليزي مصر من جميع مواطن قوتها؛ فالجيش قد أُضعف، وأُنقص عدده، وقلّ قدره، والمدارس الحربيّة أُغلقت إلّا واحدة من أصل تسع، والتعليم أصبح لطائفةٍ قليلةٍ جدًّا من أبناء القادرين، وقُضي على الأسطول البحري، وبيعت سفنه، وما يتبعها من ورش ومعامل وأحواض عائمة، وغير ذلك. وأُغلقت المصانع وبالغ الإنجليز في ترديد مقولة إنّ مصر بلدٌ زراعيّةٌ، ولا يمكن أنْ تكون صناعيّةً في يومٍ من الأيام. وبالرغم من النهضة الزراعيّة التي شهدتها مصر أثناء الاحتلال الإنجليزي إلّا أنّها كانت لصالح المستعمِر فقط؛ فتكدّست الديون على الأهالي، وأصبحت أغلب أراضي مصر مرهونةً لدى بنوك التسليف، والمرابين الذين انتشروا في ربوع مصر انتشار النار في الهشيم، فأصبحوا كالجراد الذي يأكل الأخضر واليابس. وانحطّت الأخلاق؛ فانتشر شرب الخمر والمسكّرات، وتناثرت نوادي ألعاب الميسر والنوادي الليليّة بما فيها من إباحيةٍ وانحلالٍ برعاية الاحتلال ورجاله في كلّ مدينة وبندر. وكانت هذه من أهمّ أدوات الاستعمار التي يستعملها في القضاء على كيان المجتمع وهويته.

لائحة المصادر والمراجع

أولا. المراجع العربيّة والمترجمة إلى العربيّة

١. أليكس ميكشيللي، الهويّة، ترجمة علي وطفة، دمشق، دار الوسيم للخدمات الطباعية، الطبعة العربيّة ط١، ١٩٩٣م.

٢. الجندي، أنور، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط٢، ١٩٨٣م.

٣. أنور عبد الملك، نهضة مصر – تكوّن الفكر والأيديولوجيّة في نهضة مصر الوطنية (١٨٠٥-١٨٩٢م)، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١م.

٤. جرجس سلامة، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢-١٩٢٢)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصريّة، ١٩٦٦م.

٥. حسن حنفي، الهويّة، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

٦. سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربيّة، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د.ت.

٧. سلامة موسى، اليوم والغد، القاهرة، سلامة موسى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٢٨م.

٨. سلامة موسى، ما النهضة، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

٩. شحاتة عيسى إبراهيم، الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة،٢٠١٥م.

١٠. عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، ١٩٨٩م.

١١. التويجري، عبد العزيز بن عثمان ، مقدمة كتاب: محمد فاروق النبهان، الاستشراق- تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلاميّة للتربية والعلوم والثقافة، ايسيسكو، ٢٠١٢م.

١٢. عبد العزيز فهمي، تيسير الكتابة العربيّة، القاهرة، مجمع اللغة العربيّة، ١٩٤٦م.

١٣. الجميعي، عبد المنعم ، مجمع اللغة العربيّة، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

١٤. عصمت نصار، فكرة التنوير بين لطفي السيد وسلامة موسى، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤م.

١٥.القوصي، عطية وآخرون، الحضارة الإسلاميّة وتاريخ العرب الحديث، القاهرة، وزارة التربية والتعليم، ٢٠١٢/٢٠١١م.

١٦.عمر عبد العزيز عمر، تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩١٩م)، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣م.

١٧.مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، الجزائر/ دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٩٨٨م.

١٨.محمد جلال كشك، قراءة في فكر التبعية، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

١٩.محمد عمارة، الغزو الفكري وهمٌ أم حقيقة، القاهرة، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلاميّة بالأزهر الشريف، د.ت.

٢٠.مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربيّة، بيروت، المكتبة العصرية، ط٣، د.ت.

٢١.منذر معاليقي، الاستشراق في الميزان، بيروت، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م.

٢٢.نفوسة زكريا سعيد، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، دار نشر الثقافة بالإسكندرية، ط١، ١٩٦٤م.

٢٣.شعراوي، هدى ، مذكرات هدى شعراوي، القاهرة، كلمات للترجمة والنشر، ٢٠١٣م.

ثانيًا. المراجع الإلكترونية:

٢٤. سليمان صالح، قصة الهويّة التي حاول الإنجليز فرضها على مصر، مقال إلكتروني منشور بتاريخ ٢٠٢٤/٣/٢٦م، وتم الدخول عليه في ٢٠٢٤/٩/١٢م، على الرابط التالي:
https://www.ajnet.me/blogs/2024/3/26/%D9%82%D8%B5%D8%A9-

٢٥. الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير- الاستشراق – الاستعمار، كتاب اليكتروني على الرابط التالي:
http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?7048-